عودة الى الروض !

للأستاذ محمود البشبيشى

كنت أعلم أن للقلم غفوة كما للقلوب ، ولكن لم أكن أدرى أن للقلم صحوة كصحوة القلوب

وما كنت أعلم أن القلم يدرك معنى الحنين ، ويحس لوعة الفراق ، وأنه كالقلوب تحس أن الحنين دليل الرغبة ، والرغبة سبيل العودة

لم أكن أعلم هذا ، حتى قرأت كلمة الدكتور الفاضل زكى مبارك ، فأحسست أن القلم غلبه الحنين والشوق ، وأنه أصبح من مادة القلوب يسيره الشعور ويأمره فيطيع !

... ودبت فيه الحياة من جديد ! وأخذ يعطرنى وابلاً من الخواطر السيالة بالعاطفة ، المتلألئة بالنور ، الفواحة بالزهر ، تخلص من فكرة لفكرة خلوص كلمة الحب من قلب المحب الى تقية طاهرة. وللقلم حق عزيز علىّ ... آه من تبعاته ورغباته !

فيا ليتك يا صديقى ما تلفت فهجت أحلاماً كانت هى أيضاً فى حلم ! ويا ليت قلبى ما تلفت وتسمّع ... ياليته ، ياليته !

فأيقظ القلم وحرك الطبيعة الكامنة فى النفس كون سر الحياة فيها ... أنت السبب فى كل ذلك يادكتور ... أنت السبب فى العودة وحنين العودة ، فقد أحسست روحاً غريباً ينشره أريج كلماتك سحراً تتلفت إليه القلوب فيقيّدها ! ثم هى برغم ذلك تهنأ بالقيد لأنه قيد روحى نبيل فى ضغطه على النفوس ... فأعجب لقلب ينعم بأن يتعذب ويتعذب بأن ينعم ! إننى هذا القلب الغريب !

ثم الناس من يرق ويرق ، وينبل وينبل ، ويدق شعوره حتى يُصبح كل جزء من جسده البشرى قلباً حياً ... !

وأنت أيها الصديق من هذه القلوب التى تمشى على الأرض ! وتتألم لأنها لا تستطيع إلا أن تتألم ، وتحب لأنها لا تستطيع سوى أن تحب ! هى حرة فى كيانها وليست بحرة ... صريحة فى فعلها وميولها وليست بصريحة ... يقيد حريتها خوف الجور على حرية الغير ! وهذا نبل جميل ... ويمنع صراحتها خوف جرح قلوب الغير ... وهذا نبل آخر ...

أنت من هذه القلوب أيها الصديق وإن احتار فى أمرك الكثير ، وطالبك البعض برفع القناع عن زكى مبارك الأديب . وليتهم قالوا عن القلب المبارك الأديب !

أيها القراء إن أردتم معرفة زكى مبارك الرجل فأنا أقول : إنه الوفاء والشهامة والسهولة فى الطبع ... وإن أردتم معرفة زكى مبارك الأديب أو القلب المبارك الأديب واحترتم فى أمره فعليكم بما كتب وما سوف يكتب فى عالم الحب والجمال وصوفية الحب والجمال

هناك تلمسونه روحاً تتدفق ، وقلباً يعرف كيف يحب وكيف يكره ، كيف يصارح وكيف يرائى ، كيف يتألم فيستر الألم لمزة فى نفسه ، ويفرح فيملأ الدنيا غناء ، لأنه قلب إنسانى كما قلت لا يحب أن ينعم وحده . بل يسعده أن يُطلع قلوب الغير على أطياف السعادة !

أيها الحائرون فى أمر الدكتور ، أنا لا أرى سبيلاً للحيرة فى أمره . وكيف تصح الحيرة فى رجل « يقتل الوقت والعافية فى تذكر القلوب الغوادر ، وفى دنياه تكاليف تميد من أثقالها الجبال . لأن الموجب معروف وهو الوثاق المسطور فى اللوح المحفوظ بألا تعيش روح إلا مجذوبة إلى روح »

كيف الحيرة فى رجل يرى من يكذبه صادقاً . لأنه كاذب فى تصوير ما يعانيه !

من الصحف ، هذا غير كتابيه (الثورة العرابية) وقصة (تيس)

* * *

رحمك الله يا أخرى ، وأجل عزاء الأدب فيك ، ولطف بأصدقائك وعارفيك . فقد كنت نعم الأديب ونعم الصديق ...

هذا بعض حقك علىّ ، أرجو أن تجد لى العذر إن كنت قد قصرت فيه أو أخطأت ، فإن الحزن يغالب خاطرى وذاكرتى كلما أمسكت القلم لأكتب عنك ، أو أنا كما يقول شوقى :

رثيتك لا مالكا خاطرى ... من الحزن إلا قليلاً خطرْ
سقتك الدموع فإن لم ... يدمن كما دمعهن سقاك المطر

أحمد قنى مرسى

تلك يا دكتور فلسفة جميلة، وأجل منها أنك أحكمت أحبولة الرياء فى وجه الوشاة والمذال . إنه رياء نبيل حقاً . . . ولكنى فى حيرة من أمر ذلك الرياء الذى تقربت إلى الله به . أنا فى حيرة فهل لك أن تأخذ بيد صديقك من هذه الظلمة فيطمئن قلبه عليك وعلى نفسه ! أهو رياء المجد كل ما فيه حب ووفاء ! ... ما أصدق حنين القلم وما أجمل العودة إلى الروض !

يا صديقى ... لست أدرى أى سحر فى ظلال دوحة أفكارك استطاع أن يخرجنى من صمت ظلمته لا يفارقنى ولا أفارقه ... أى سحر يا صديقى أى سحر !

ترى هل ودعنى الأدب يوم ودعته لغير عودة ، وفى نفسه أن يعود ، وأن يكون بعنه على يدك يا دكتور ، وإلا فما هذا الصوت الغريب الذى يناديني من ثغور أزهارك ؟ وما هذه الألوان النفسية الصوفية التى تنمرنى من خواطرك الجريحة فى الشوق والحب !

تسأل يا دكتور ماذا تضمر الدنيا فى أيامها المقبلات ؟ ! إنها تضمر الخير والحب والنور والمجد ، وما كان لها سوى أن تضمر ذلك للقلب الذى صير الحديث عن الوفاء والحب شريعة من شرائع الوجود ! ! للقلب الذى يسأل أين بائع النسيان ؟ وأين بائع الألوان ؟ للقلب الذى علمته صوفية الحب ألا يرائى من يبغض ، ويرائى من يحب ! ! إنها القلوب أيضاً يا دكتور لها من منطق شعورها صراحة لا يعرفها سوى الذين خلقوا وكل ما فيهم قلوب حية ! !

يا طالما أحسست فى نفسى شيئاً لم أستطع إدراكه ، وصر على قلبى إحساس لم تفسره دقاته ! ولكننى اليوم واليوم فقط علمت هذا الشىء وعرفت هذا الإحساس . إنها أغنية العودة إلى الروض ، أغنية القلم تذكرنى بأيامه ولياليه، بل بأيامنا ولياليناً أيام كنا يا دكتور نصل الحديث بالحديث ، نتقابل لنتكلم فى النثر والشعر ، ونفترق لنعود للنثر والشعر ... أيام كانت نفس تشعر بالحياة لأن كل شىء فى الحياة يشعر بها ... وقبل أن تسود الضمائر وتجحد الأيادى !

... لا يكاد يظهر كتاب حتى نقتله بحثاً أو ننقده نقداً نزيهاً يعلمه الدكتور . تذكرت هذه الأيام والليالى ، وما كان منا فى هذه الأيام والليالى ، وهاجت الذكرى فى نفسى فأصبحت شعوراً قوياً، وكبر الشعور القوى فصار رغبة ، وتجسمت الرغبة فكانت عودة إلى الروض ، الروض الحبيب ، روض الأدب ، وكنت أنت باعث هذه الرغبة وصاحب الفضل فى تلك العودة

فيا أيها القلم تحية لقاء حبيب منى ! . . . علم الله ما تركتك زاهداً ... إنما عز علىّ أن أشرعك فى وجه من يشرع فى وجهه السيف وشىء آخر أحقر من السيف ! ولكنها عودة جميلة ... ومن العيب أن أناديك فلا تلبى النداء ... إن الروض قد ابتسمت أزهاره فلم لا تبتسم ... وإن رفاق الفكر والقلب ينتظرون منك الأغنية ... والعودة إلى الروض ... بعد أن ظن رفاق السوء أنها غفوة لا صحوة بعدها ! أيها القلم ، عزيز علىّ هذه الغيبة الطويلة ... وحبيب إلى هذه العودة الجميلة ... وليعلم الذين جحدوا آياتك . . . أن الدائرة تدور . . . وأنك بالمرصاد ! وأن القلب الكريم إن هو لم يثر فى وجه المعتدى يوماً فله عودة وعودة غير عودته إلى الروض !

(المنصورة) محمود البشبيشى

الفصول والغايات

فى تمجيد الله والمواعظ

وهو معجزة أبى العلاء المعرى فى النثر

لم يبق منه إلا نسخ محدودة

فاطلب نسختك قبل نفادها

يباع فى ادارة الرسالة وثمنه ٣٠